

ثورة الحسين (ع) .. شمعة الإسلام



www.balagh.com

ثورة الإمام (ع) كانت شمعة الإسلام حيث أضاءت لملايين المسلمين درب خلاصهم، وعرّفت لهم موطن أقدامهم، وجذبتهم الزلل في حُفَرِ الضلال والسقوط في فِخاخ الخطيئة والتهاون، وأبانت ليصائرهم - بسطوعها المتجلّي أبداً - مسالكَ الحق، وطردت عنها معالم الوحشة لقلة سالكيها، فعَبَرَها المؤمنون آمنين مستنيرين بأنوار الشمعة التي أضاءت - باحتراقها فوق ثرى كربلاء - ولم تَزَلْ تُضيء.. حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. درع الإسلام - ذبّ عن الإسلام الأدى المتمثل بوهنه العقيدة وانحلّ روحانيّة الدين، بعد أن غدت العقيدة (في قلوب الناس) صَعْفاً لا يتصدّل بقوّة، بعد أن كانت قوّة لا تتصدّل بضمّعه، فأغار الحسين (ع) على مواطن الوهن والإثم، بالقول والفعل، وتلاّقى (ع) - بصبرٍ نادرٍ عجيبٍ - كلّ ما شَهَرَه في وجهه: >فَدَةُ الشيطان، مستحلاً وحُرَمَاءً وناكلاً عهوده، ومخالفو سُنّة رسوله، العاملون في عباد الله بالإثم والعدوان.. فكان (ع) - بتصرّفه للأذى اللاحق بالعقيدة - درع الإسلام بحقّ. فلولاه، لَمَا كان الإسلام إلى ما صار إليه: عقيدةٌ ثابتة تتربع في وجدان المسلمين وضماناتهم، بعد أن كاد يتحول إلى مذهبٍ باهتٍ يُركَن في طاولة الرؤوس التي أدارتها نحو المذهبية الساذجة الحمقاء ممارساتُ القائمين على أمور المسلمين من حكماءٍ وأذنابٍ سلطةٍ ومَدّاحي دواوين! ضمير الأديان إلى أبد الدهور.. باستشهاده (ع)، الذي لم يسجل التاريخ مثيلاً له، تكرّست ثورته كضمير للأديان السماوية، يستصرخ أبداً مناطقَ الشعور في الأنفس، وينبهُ بتواترٍ لا يهدأ مَناusi العقيدة في الحَنَايا، فكانه من الدين المعنى الديني، (رتّله) في المهج على مقدار ما فيه من معناه. حسيننا ضمير الأديان، والضمير محبّةٌ وتحابٌ وغيّرة، في تلافيفه حنوٌ المستقبل وزمانه، ومن آياته المُعْدَّرة في صيغةٍ تعبيريةٍ عن حقيقتها: يا أيّها الذين آمنُوا مَن يَرْتَدِّ مِنْكُمْ عن دِينِهِ فسوفٌ يَأْتِي إِلَيْهِ بِقَومٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذْلَّةٌ على المؤمنين، أَعْزَّةٌ على الكافرين، يُجاهِدونَ في سَبِيلِ اللهِ لَا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ، ذلك فضلٌ اللهٌ يُؤْتِيهِ مَن يشاء، وَإِنَّ واسعَ عَلِيمٍ. خير الأمم أمّةٌ هُدِيَت إلى الحقّ فهُدِيَتْ بِهِ، فالحقُّ يَجعل من الأمّة خيرَ الأمم، ومن المؤمنين خيرَ البشر وممّن خَلَقْنَا أُمّةٌ يَهْدُونَ بالحقِّ وبه يَعْدِلُونَ، مقياس الأمم قبول الحقّ والعمل به، ومقاييس المقايس يُسيِّسُ خيرَ المؤمنين فئةً هُدِيَتْ إلى الحقّ وعدلتْ بِهِ، وزَهَّتْ عن نقشه. فمن مَن المؤمنين فعلَ هذا؟ مَن الذي أعلن على رؤوس الملاّق قوله هذا: «إِنَّمَا خَرَجَ لِطَلْبِ الإِصْلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِّيٍّ.. أُرِيدُ أَنْ أَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهِي عَنِ الْمُنْكَرِ.. فَمَنْ قَبَلَنِي بِقَبْولِ الْحَقِّ فَإِلَيْهِ أُولَئِكَ الْحَقُّ، وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ هَذَا أَمْبَرٌ حَتّى يَقْضِي اللهُ بَيْنَ الْقَوْمَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّهُ الحَسَنِ سَيِّدُ الشَّهَادَةِ فِي مِيَادِينِ الْحَقِّ، وَالَّذِي كَانَ نَهْضَتْهُ تمثيلاً عَلَيْهَا لِضَمِيرِ الأَدِيَانِ عَلَى مِنْدَهُ الْدَّهُورِ.. وَلَئِنْ اعْتَدْدَيَ عَلَى الْحَقِّ الْإِلَهِيِّ فِي غَفَلَةٍ مِّنِ الزَّمْنِ، وَفِي حَلْمٍ كَثِيرٍ الطَّلَامِ، فَلَهُذَا الْحَقُّ فِي ضَمِيرِ الْكَوْنِ شَاهِدٌ.. وَكَانَ الحَسَنُ (ع) ضَمِيرَ الأَدِيَانِ فِي عَمَرِ الْدَّهُورِ، هُوَ الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ عَلَى مَحَاوِلَةِ إِرْهَاقِ الْحَقِّ فِي ضَمِيرِ الْكَوْنِ.. وَيَأْتِي اللهُ إِلَيْهِ أَنْ يُتَمَّ نُورُهُ.. وَتَأْبِي حُكْمَتِهِ إِلَّا أَنْ تَبْلُغَ مَدَاهَا فِي فَضَاءِ الْعَزَّةِ وَالْجَلَالِ، لَتَغْمُرَ أَفَاقَ الْبَشَرِيَّةِ بِالْقَدِيسِيَّةِ وَالْعَدْلِ

والذُّبُول. لهذا المقصود الإلهي.. كان الحسين قبس هداية، ومِشْكَاة طُهُور، ونموذج أخلاقٍ فاضلة، وكان حقاً ضمير الأديان إلى يوم القيمة. كان هدف الحسين أن يعيد إلى الحياة سيرة جده، التي قامت على العدل والمساواة ومحاربة الفقر والظلم والفساد، مقاومة التمييز العنصري ووحدة الأمة. ونشر الغنى والرفاه وإقامة العدل وإحياء الدين بكل أهدافه الاجتماعية ورسالته الإنسانية لذلك رکز الحسين على استئثاربني أمّة بالفيء وتعطيل الحدود وإذْهم اتخذوا مالاً دولاً وعباداً خولاً.

فالحسين.. البصعة الرسوليّة، قام ب مهمّة لا تقلّ خطراً عن مهمّة جَدُّه، فأبقى الإسلام كما بشّر به جَدُّه الكريم، وأودع في صدور المسلمين وديعةً ثمينةً تنبئ بهم بوجوب الحفاظ عليها، لأندر وأغلى ما يملكون. ولقد جاء في أخبار الحسين (ع) أرْهَ كأن صورةً تشكّلت من صورة جَدُّه النبيّ (ص)، له شَبَهُه في الخُلُق والخلقة.. تطلّع إليه الجدّ فرأى في مَخَايِلِه سيماءً مستقبل الأمّة وسُؤددها، وحامل لوانها من بعده. السبط النبوّي - تطلع إلى جَدُّه.. فرأى فيه معنى الدّين ومعنى العقيدة، واستشفّ من الأذان الذي كدّره (جَدُّه) في سريرته - ولمّا يَنْزَل (الحسين) رضيعاً - رأى المستقبل الآتي. سيد الشهداء - سما في شهادته فوق سمّ و كل الشهادات التي أُتيها أرباب الديانات وشهاداتها.. منذ زكريّاً ويحيى حتّى المسيح، فكان (الحسين) إماماً حِقّاً، وسيّداً شهداً للحقّ. سيّد شباب أهل الجنّة - أتمّ حجّةً في خَلْقه وفي دِينه الحنيف، وأبرزَ مظلوميّة آل محمد، وأعاد دين النبيّ - الذي بشّر به إلى صراطه المستقيم - فأفني ذاته وأهله في هذا السبيل، رَخْص نفسه الغالية فأغلى له الله تعالى نفسه على أنفسه ساكني جنة خُلُده، فصار سيّدَهم بما عَمِلَ وضحّى، وصار أحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء.

إنّها الثورة على السلطان الجائر، المستحل لحرماتنا ، والذي لا يرى لأحد حرمةً أمام استبداده، الناكل لعهده فلا يعاهد أحداً إلا لينقص عهده عليه أساس انتهاز الفرص التي يستفيد منها لمصالحه، لينتقل بعد ذلك إلى فرص أخرى لمصالح أخرى، بعيداً عن أخلاقيّة الإنسان الذي يحترم كلمته ويلتزم بعهده. لأنّ الالتزام بالعهد لا ينسجم مع خطّه الذاتي وأطماعه المادّية وشهوّاته الغريزية... الأمر الذي يجعل إسلامه شكلاً كلامياً لا يقترب من الصدق في الالتزام ولا في الاستفادة في خطّ السير. العامل في عبادنا بالإثم والعدوان، هو الرجل الآثم في تعامله مع الناس، العدواني في تصرفاته معهم. لأنّه لا يعيش مسؤولية الحكم على أساس العدل، ولا يحترم الناس في علاقته بهم على أساس المسؤولية، فهو الوحش في صورة الإنسان. هذا هو الإنسان الذي يجب أن تقوم الأمة بالثورة عليه، لتجيئه واستبداله بإنسان آخر من خلال الكلمة الثائرة والموقف القويّ الحاسم. فلا عذر للقادرين على عملية التغيير، أن يبتعدوا عن ساحة الصراع ضدّه، والثورة عليه، ولا مجال للحياد بينه وبين الحاكم العادل. وهكذا كان الحسين يتقدّم عن الخط العريض للجانب الفكري من خط الثورة. أمّا الجانب التطبيقي في ساحة الواقع، فهو فريق الحكم الذي عاش في عصره. فهو لاء الناس، في صورة الحاكم وأتباعه، هم الذين تركوا طاعة الرحمن، فابتعدوا عن الله سبحانه في حياتهم واقتربوا من الشيطان في ذهنّياتهم وخطواتهم، وبدّلوا الشريعة في نهجهم وطريقتهم، فإذا بالحلال يتحول إلى حرام عندهم، وإذا بالحرام ينقلب حلالاً في سلوكهم. ثمّ كان من أمرهم أن استأثروا بثروة الأمة فحوّلوا إلى ثروة شخصية، وعطّلوا الحدود التي أرادوا للعباد أن يقفوا عندها ولا يتزاوجوها، فأضاعوا الناس والحياة والدين كلّه. ولا بدّ للحسين أن يغيّر بقوله وبفعله. وكانت الثورة الاستشهادية هي بداية التغيير من أجل أن تطلق الصرخة المدوية، المضرّجة بالدماء، المنفتحة على كلّ الحق والعدل والعزّة والكرامة والإنسان والحياة في حركة الحاضر نحو المستقبل.

تلك هي صورة التحدّي الحسيني في مواجهة الواقع المنحرف في داخل الواقع الإسلامي، لأنّ الحركة كانت حركة داخلية في ما يعانيه الوضع الإسلامي العام للأُمّة على مستوى الحكم والحاكم. ومن الواقع الذي عاشه الإمام الحسين في مرحلته، فقد كان الحكم في عصره يجعل الإسلام شعاراً له، ولكنه كان ينحرف عنه في خط السير ونهج الحركة. فهل نستطيع أن نبتعد عن خط الثورة في ذهنية المسلم التائر؟ وهل نملك أن نتنكّر لحركة التغيير في وعي الواقع العملي لروحية التغيير؟ لابدّ أن يكون كلّ واحد منا مشروع ثائر في الخط والحركة والمعاناة.

أمّا حركية الثورة في الفعل، وشرعية التغيير في النهج؛ فقد نحتاج فيها إلى رصد طروف الواقع العملي من حيث القدرة والإمكانات والنتائج، لنخطط من موقع الدراسة الدقيقة الحية ولنعرف كيف نواجه التحدّي في الفعل ورد الفعل، وكيف تنتصر القضية علينا، أو تهيء الظروف لتقريب موعد النصر، أو لتحريك خطواته في اتجاه المستقبل. ليس من الضروري أن يكون الأسلوب الحسيني في الشكل المأساوي الاستثنائي هو أسلوبنا. لأنّ من الممكن أن يكون لهذا الأسلوب طرفه الخاص الذي فرضته حركة الأحداث في تلك المرحلة، مما قد لا تتوفر فيه خصائص الظروف التي تعيشها مرحلتنا الحاضرة. ولكن لابدّ أن تكون الروحية الحسينية هي التي تمثلّ معنى روحيتنا، فقد واجه الإمام الحسين الموقف على أساس الاستمرار فيه وعدم التراجع عن جميع الاحتمالات. وهذا ما عبر عنه بقوله: "فمن قبلني بقبول الحق" فـ [أولى بالحق] ومن ردّ على هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق".